تمهيد

ظل التراث هو والكنيسة المسيحية طيلة جزء كبير من تاريخ الحضارة الغربية هما المصدرين الرئيسيين للوعى الشعبى عند المجتمع. بل إن الثوار الاجتماعيين مثل منظرى الثورة الأمريكية لجأوا إلى العناية السماوية كمبرر لسياساتهم. على أن المجتمع الغربى فى قرننا الحالى قد أصبح أكثر علمانية وعقلانية وأصبحت المصادر الرئيسية للنظرية الاجتماعية هى من المثقفين المهنيين، والعلماء، ورجال الاقتصاد، والمنظرين السياسيين، والفلاسفة، ممن يعملون عموماً فى الجامعات، وهؤلاء المثقفون يدركون مالديهم من سلطان لصياغة الوعى الجماهيرى، وهم دائما يلتمسون السبل التى يمكنهم بها نشر أفكارهم بين الجماهير. والمسار الشائع هو أن يصبح الواحد منهم مشهورا بعض الشهرة، وأن يشتهر عنه «اكتشاف» ما، يشمل كل شىء بطريقة هى عادة تبسيطية، وهذا الاكتشاف يتعلق بسر الوجود البشرى وجودا اجتماعيا ونفسيا. فكل شىء هو إما جنس أو نقود أو جينات. والنظرية البسيطة المثيرة التى تفسر كل شىء يصبح منها مادة صحافة جيدة وإذاعة جيدة ومادة تلفاز جيدة، وكتب من الأكثر بيعا. وأى واحد يحوز مرجعية أكاديمية، وأسلوب كتابة نصف مقبول، وفكرة بسيطة قوية سيسهل له أن ينفذ إلى الوعى الجماهيرى.

ومن الناحية الأخرى، إذا كانت رسالة المرء هى أن الأمور معقدة وغير أكيدة ومشوشة، وأنه ما من قاعدة بسيطة أو قوة بسيطة تفسر ماضى الوجود البشرى وتتنبأ بمستقبله، فإنه لن توجد عندها سوى مسالك أقل من القليل تمر هذه الرسالة من خلالها. فالدعاوى المتزنة عن تعقد الحياة وجهلنا بالعوامل التى تحددها ليست بالدعاوى التى تؤلف عرضا جذابا.

ولحسن الحظ أن ثمة تقليدا تعد محاضرات (ماسى) جزءاً مهما منه، وهو تقليد توفير برنامج جماهيرى تعرض فيه نظرة عن العالم تتصف بأنها أكثر تعقدا وأقل استعراضية وبالتالى، فقد أحسست معا بالسعادة وبما يرضى غرورى، عندما دعيت إلى إلقاء محاضرات (ماسى) عام ١٩٩٠ فى برنامج هيئة الإذاعة الكندية، ثم عندما حولت تلك المحاضرات إلى هذا الكتاب. وقد وفرت لى هذه المحاضرات الفرصة لأن أناضل ضد الرأى القائل بأن العلم يتألف من حقائق موضوعية بسيطة، وأننا لو استمعنا فقط إلى البيولوجيين، فسوف نعرف كل ما يستحق أن يعرف بشأن الوجود البشرى.

والخطاب العلمى، وخاصة الخطاب المكتوب، يختلف تماما عن أشكال التواصل العادية، وبالتالى فقد كان من الصعب على وجه الخصوص أن أبتكر مجموعة من أحاديث للإذاعة قابلة للوصول إلى المستمعين على وجه العموم. ثم تلا ذلك صعوبة أخرى فى إلقاء هذه المحاضرات بأسلوب له حيويته لجمهور مستمعى الراديو الذين لا تراهم. وأى نجاح لى فى إنجاز هذه المهام سأكون مدينا به للانتقادات التى وجهتها

لى چيل أيسن التى تعمل فى هيئة الإذاعة الكندية، والتى جعلتنى أعيد العمل المرة بعد الأخرى حتى يصبح سليما. ودون جهدها وتشجيعها لصارت هذه المحاضرات فشلا كاملا.

وعند تحويل المحاضرات إلى هذا الكتاب كان علىّ أن أقاوم الإغراء بالارتداد ثانية إلى لغة الخطاب الرسمى للإنتاج الثقافى المكتوب، وبدلا من ذلك فقد حافظت على محاضرات الإذاعة كما هى فى معظمها. وهذا فيه ما يؤدى حتما إلى شىء من الاستطراد وعدم الوضوح. وأنا مدين أعظم الدين لشون أوكى حيث حرر هذا النص مع لمسة اتصفت بأنها لمسة خفيفة وسديدة معا، مما أدى به إلى إنجاز تحسينات هائلة.

وفى هذه الطبعة(*) من «البيولوجيا كأيديولوجية» أضفت إلى محاضرات (ماسى) الأصلية نسخة مكتوبة من مقال حديث ظهر فى «عرض الكتب بنيويورك». وفى حين أن إطار المقال كان إطار عرض لكتاب، إلا أنه فى الحقيقة مناقشة للعواقب المهمة لوضع سياسة عمل تنبنى على الإيمان بسلطان دنا(**). والخطاب فى هذا المقال هو بالأسلوب الأكثر تثقفاً فى الإنجليزية المكتوبة، وإن كان الجمهور الذى قصد به هذا الخطاب هو نفس نوع الجمهور كما فى محاضرات (ماسى) الأصلية. وأنا مفعم بالامتنان لويندى وولف لأنها قد حثتنى على إضافة هذا الفصل كما ساعدتنى فى إنجاز ذلك.

وأخيرا فإنى مدين بالشكر لراشيل ناسكا لإنجازها لنسخ عديدة من المحاضرات ومن النصوص نقلا عن أشرطة تسجيل وعن أنابيش لا تقرأ. وما كان سيمكن إنتاج أى شئ من غيرها.

ر. س. ليونتين

كمبردج، ماساتشوستس

١٦ يوليو ١٩٩١

مارلبورو، فرمونت

٢٧ أغسطس ١٩٩٢

---

* المقصود الطبعة الثانية فى ١٩٩٢ (المترجم)

** دن. أ أو دنا اختصار لحامض دى أوكسى ريبو نيوكليك، وهو حامض فى نواة الخلية له دور رئيسى فى الوراثيات، حيث تتكون منه الجينات التى تحمل الصفات الوراثية. (المترجم).